الحداثة وأزمة الوعي العربي بين الغياب والحضور

أ. بن طرات جلول –سيدي بلعباس

لقد ارتبط مفهوم الحداثة في الخطاب العربي المعاصر بنهضة العقل والتأسيس لمشروع تواصلي ينفتح على ثقافة الآخر، ومن ثم تظهر تجليات هذا المشروع من خلال تلك المنظومة الحضارية التي تعلن عن ولادة العقل العربي وتعبد الطريق لتجاوز كل الأزمات التي أجهضت ذلك الموروث القيمي الذي بمقتضاه يتحدد مشروع حوار الحضارات والثقافات والأديان، وتظهر بوادر تحرر الفكر العربي من تلك الإيديولوجيات العمياء التي أنتجت بعض العصبيات التي غيبت وأقصت ذلك الخطاب النهضوي الذي اختزله المفكر العربي "مالك بن نبي" عندما تناول مشكلات العالم الإسلامي وكل مظاهر الصراع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والإيديولوجي، وأعاد بعث جدلية المغلوب والغالب من خلال مفهوم القابلية للاستعمار، هذه القابلية حددت تبعية الإسلام للغرب لتظهر صور الاستلاب والاغتراب التي يعيشها الوعي العربي حينها أصبح مفهوم النهضة مرتبطا بتلك الوثبة الحيوية التي تتعايش في مجالها الثقافة الإسلامية مع الثقافة الغربية كحجر أساس لمفهوم الشراكة على مستوى القيم وكل المؤسسات المسؤولة عن صناعة الوعي، وبذلك فإن غياب الوعي العربي في صياغة رؤية جديدة للحضارة ومواجهة تحديات العولمة قد فسح المجال لطبيعة هذا الجمود والسكون الذي استوعبته وضعية العالم الإسلامي، فالأفكار والقيم والثقافات التي نستوردها تشخص حقيقة هذا الغياب الذي يعكس الواقع الإسلامي ويمثل دعوة صريحة للبحث عن البديل لتجاوز هذه الأزمة التي حملت في ظاهرها وباطنها ثورات التغيير التي تنادي بها بعض الدول العربية حاليا.

إن قراءتنا لأزمة الوعي العربي يحمل في أبعاده السوسيولوجية والفلسفية تلك الخلفية الإيديولوجية التي حولت الأمة العربية من موقع المجدد إلى موقع المستهلك ليصبح التخلف والانحطاط والضعف مرادفا لوجودها في معادلة التنمية والبناء، وبذلك فإن التجديد وكل مشروع نهضوي قد يختزل مقومات الحداثة وكيفية التواصل مع الآخر، ومن ثم تظهر ملامح حضور الوعي العربي الذي يبدأ بالقطيعة مع كل ما هو سلبي وينتهي بولادة جديدة للعقل العربي أين تتجسد خصوصيات هذه الولادة كجزء لا يتجزأ من تلك الكتابات التي حددت مفهوم النهضة العربية وتحولها إلى الحداثة « وذلك باعتناق الفكر الغربي الحديث بمقولاته الأساسية وهي العقلانية والتقدم ومسؤولية الإنسان عن نفسه على المستوى النظري والعلمانية والنظام الماركسي والدولة المركزية على المستوى العملي كما يعتقد عبد الله العروي» 1 فطبيعة هذا الاعتقاد يؤسس للقطيعة مع التراث بحثا عن تلك المناهج العقلية الحديثة والمعاصرة لتمكين العقل العربي من النهوض، ومن ثم فالتقدم الحداثي هو التقدم الذي يختزل أصالة الوعي الإسلامي ضمن تلك القيم الأخلاقية التي تؤمن بحركة هذا الوعي بدءا

بفهم مشكلات النهضة العربية باعتبارها المرجع الوحيد للمفاهيم التي يستقيم على ضوئها مفهوم الحداثة، ليظهر مشروع تصحيح مسار الوعي العربي الذي يتوق إلى تقريب الدور التاريخي إلى كل معلم ثقافي أو خطاب إيديولوجي يعزز حضور هذا الوعي دون غيابه والانفتاح على واقع الوعي الغربي الذي صاحب ميلاده عصر النهضة والثورة الصناعية التي أنتجت مفهوم الحرية والمساواة والديمقراطية والعدالة ، وأسست للفكر العقلي بخلاف التجربة العربية المعاصرة التي أدلجت إخفاق تلك السياسات الإصلاحية وغيبت نجاعة العقل العربي الذي استوعب تلك الإخفاقات كمقدمة تعيد لتلك المفاهيم والخطابات صورتها القومية في المجتمع العربي الراهن.

إن إشكالية التقدم والتأخر وحالة الاستلاب التي يعيشها المثقف العربي تعود إلى تلك الهيمنة الاقتصادية والسياسة والذهنية المتأخرة التي ارتبطت بوضعية الاستهلاك لا بوضعية الإنتاج، ومن ثم تتعارض مع الذهنية المدنية التي تعني وجود جو ثقافي مدني يتواصل فيه الناس لتتجه اهتماماتهم إلى الخلق والتجديد والإنتاج ، ومن هذا المنظور يظل الفكر العربي أسيرا للماضي دون مسايرة الحاضر، هو بمثابة إلغاء لكل مكونات النهضة الحقيقية للوعي العربي ، ورفض مطلق لقيم الحداثة والتواصل مع الآخر.

إن وضعية الحداثة في المجتمعات الغربية قد أرست نمطا خاصا تعايش مع كل تقدم تقني أو مشروع تنويري حاربت من خلاله البورجوازية الصاعدة فكر القرون الوسطى لتصبح كل ثورة دينية أو ديمقراطية أو صناعية ميدانا لتطور المجتمع وأسلوبا حضاريا يستوعب فلسفة الحضور للوعي العربي ضمن هذا النمط الذي استوعبه ديكارت وكانط وسبينوزا وليبنز وهيجل وماركس، ومن ثم فإن القابلية للتجديد والتطور سيحدد مستقبلا شروط النهضة ويتجاوز كل أزمة قد تعيق العقل العربي على استيعاب طبيعة هذه الشروط التي تمثل الأرضية التي تحرر الفكر العربي من الاغتراب بشقيه الديني والحضاري، وبذلك تكتسي منجزات العقل الغربي الحديث أهمية قصوى ستكتشف من خلالها المجتمعات العربية وضعيتها المتأخرة التي كرست لتنامي ذلك الموروث الثقافي الذي جاء كرد فعل لتلك العصبية التي أنتجتها ثقافة العصور الوسطى لاسيما الصراع بين المعرفة والسلطة والدين التي تحددت من خلاله القراءة الصحيحة للواقع العربي المعاصر.

إن فهم تلك الثورات الفكرية التي أحدثها الفكر الغربي على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يحدد وضعية التأخر الحاصل في المجتمعات العربية الذي عطل مشروع الفكر النهضوي « مقارنة مع مبدأ التقدم الذي عزز ذلك الثالوث الإصلاحي إنطلاقا من الحركة الدينية المتمثلة في البروستانتية والحركة الإنسانية التي تأثرت بسلطة رجال الدين على التقاليد والحركة العقلية التي وضعها الإنسان في إطار الطبيعة والعالم المادي» 2، هذا المبدأ يجسد حدود عصر النهضة الذي استوعب التفاعل الفكري والاعتقادي الذي اختزلته الثقافة العربية لتجمع بين القديم والجديد في

حدود تأثير تراث القدامى في بلورة الوعي العربي الذي احتفظ بالأصول الفلسفية لهذا التراث لاسيما الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية التي صاغت ملامح النموذج الفكري عند المسلمين الذين اعتبروا التقدم لحظة من لحظات تطور الفكر، وهو ما أصبح يحمله مفهوم التحضر، ومن هذا المنظور فإن غياب الوعي العربي لا يخرج عن نطاق جدلية الاستجابة والتحدي في خطاب "توينبي" الذي يعتبر أن المجتمعات كائنات حية لها صفات التحول الطبيعي والاضمحلال، فالمجتمع الذي يتعرض للاستعمار يستجيب له بالتحدي، « فالشعب الذي لا يتحدى العوائق والمشاكل فهو بعيد كل البعد عن التحضر»3، هذه النظرة تعكس تلك الدراسات التي اعتبرت تاريخيا أن التقدم من صنع الإسلام في القرون الوسطى وأن العقل العربي هو أساس نقل هذا التقدم إلى أوربا، وبذلك فإن فكرة العمران عند ابن خلدون قد استوعبت حدود فهم جدلية التخلف والتحضر ومظاهر الوعي العربي وموت النزعة التجديدية التي أسست لميلاد الحضارة الغربية « في حين تظهر تجليات النهضة العربية مع بداية القرن 19م الذي حدد حركة هذا الفكر أين تعزز ذلك الإصلاح والتجديد العقائدي في بلورة مفهوم هذه النهضة » 4.

إن انهيار الحضارة الإسلامية قد أنتج واقعا تناول طبيعة تلك العوائق التي حددت وضعية الوعي العربي بين الأزمة والنهضة ، ومن هذا المنظور قد انصرف الجابري إلى اعتبار العقل أساس تقدم الوطن العربي حاضرا ومستقبلا لتحديد ملامح العقلانية باعتبارها مشروعا نهضويا قد يؤسس للقطيعة مع مظاهر التخلف وعوائق التقدم والتنمية وبذلك فإن الرؤية الإبستمولوجية لحركة الوعي العربي ينطلق من استعراض تلك الأنظمة العقلية والدينية واللغوية في الفكر العربي المعاصر ومحاولة بلورتها وتحديثها لإقامة مشروع نهضوي ينفتح على ضرورة نمذجة الثقافة الإسلامية حتى تنسجم مع أصالة الوعي الإسلامي، وفي هذا الإطار جاءت رؤية المفكر العربي زكي نجيب محمود لتعزز هذا النموذج في قوله: «إذا سمعت عن شعب أنه ارتقى درجة أو درجات في نظامه الاجتماعي والتعليمي ونظامه الاقتصادي والسياسي وفي أية نظام من نظم حياته، فاعلم أن ذلك الارتفاع إنما تحقق له بفضل عقل حر أباحت له حريته أن يستبدل القديم الذي أصابه عقما وجمودا جديدا يشير بالرجاء» 5، هذه النظرة قد رسمت معالم ترقية الفكر العربي وأدوات تحرره للانفتاح على ثقافة التجديد والتحضر التي تتبلور من خلالها تلك الثورة التقنية التي أدت إلى تسامي العقل الغربي من النقص إلى الكمال، ومن ثم فقد اكتشف العقل العربي تأخره وغيابه في صياغة مفاهيم هذه الثورة التي استأنست بلغة العلم التي غيرت موازين القوة وأسست لمفهوم التنمية الحضارية ضمن مبادئ الحضارة الراهنة حتى أصبحت القيم البراجماتية للعقل الغربي نقطة التحول في مفاهيم الحضارة الغربية التي نظرت للإنسان نظرة عملية ، ومن ثم فقراءتنا لوضعية الوعي العربي ضمن هذه القيم ينطلق من أزمة الغياب والمشاركة الإبداعية في صياغة المفاهيم والمناهج وكيفية توظيفها لتحليل كل القضايا الراهنة.

إن الجمع بين الدين والفلسفة وسائر العلوم قد يدفع بالعقل العربي إلى الأخذ بمعالم التجديد والنهوض والفهم الصحيح لجدلية التواصل الإسلامي مع الغرب، «وبذلك فقد انصرف كل من "سيد قطب" و"مالك بن نبي" إلى تحديد المعنى الصحيح للتحضر أين أصبح قيام الحضارة مرهونا بالعلم والإنسان والأرض» 6، ومن ثم فمشكلة العقل والثورة، القومية وأسسها الفلسفية ومشكلة النهضة والحداثة، الأصالة والمعاصرة وأزمة اللغة والتأويل، ومشكلة السلطة والمعرفة والدين، ومشكلة الاستشراق والعولمة الثقافية وموقع الفلسفة الخلدونية والمكيافيلية والرشدية في الخطاب العربي المعاصر، وبعض القضايا المتصلة بالتصوف الإسلامي ومشكلة الإيديولوجيا والتأصيل الفلسفي للتاريخ والتنوير والعقلانية وأبعاد مشكلة المنهج وأزمة العلوم الإنسانية قد أخذت حيزا واسعا من الثقافة العربية المعاصرة لتظهر تجليات هذه المشكلات الفكرية في تحديد عالمية هذه الثقافة التي أعلنت عن حضوره في مرحلة معينة أين أنصفت الدراسات الإستشراقية هذا الحضور عندما تمكن الغرب من فهم الفلسفة اليونانية عن طريق المسلمين لاسيما مع الفارابي وابن رشد والغزالي وابن سينا والكندي، وبذلك فحركة الوعي الفلسفي في العصر الوسيط قد عززت هذا الحضور إلاّ أن الواقع الراهن قد حدد غياب الوعي العربي لتظهر أزمة التجديد ومن ثم اجترار واستهلاك ثقافة الغرب التي تحررت من أزمة العصر الوسيط ليتجسد كيانها العلمي والتكنولوجي عبر جميع مراحل التنمية التي حددت مستقبل الحضارة الغربية.

لقد استطاع المفكر الجزائري "مالك بن نبي" أن يؤطر لأزمة الفكر العربي انطلاقا من مشكلة الثقافة والعمل والمال ليعتقد أن الاستثمار في الإنسان فكريا قد يؤسس لمشروع نهضوي يبدأ بفهم الفكرة الدينية وينتهي بتأصيل الثقافة العربية لتحديد مستقبل الحضارة الإسلامية، «وبذلك فالإنسان هو العنصر المحوري الذي يحدد قيمة الإنسان الذي يستغل قيمتي التراب والوقت من خلال فكره وماله وعمله » 7، هذه النظرة هي حجر الأساس لبناء رؤية جديدة لحضور الوعي العربي أين تظهر الحضارة كثمرة لتطور العقل الذي استغرق في البحث والتأمل حيث استوعبت الحضارة الإسلامية هذا التطور الذي أعاد تفعيل شروط النهضة، وبذلك فإن التجربة الماليزية قد حددت نهضتها الحضارية عندما انفتحت على مشروع مالك بن نبي لتنصرف إلى أسلمة المعارف والمفاهيم وغزو الفضاء كمشارع تنموية عززت الفكر التقدمي والعقلانية التجديدية التي تجاوزت العقدة الانهزامية عند المسلمين، وبذلك فصناعة شروط النهضة والتنمية تمتد إلى امتلاك شروط التغير الاجتماعي لتتدخل المرجعية الفكرية لقراءة جدلية التخلف والتحضر التي صاغت معادلة الانفتاح على ثقافة الآخر وكيفية التواصل معه.

إن تحديث خطابنا الإسلامي وتفعيله ينطلق من قراءة تلك الإيديولوجيات المعاصرة لتأسيس ثقافة تعترف بالآخر أين يكون الاستثمار في التجربة الحضارية عند الغرب مرجعا تلك الحركة التواصلية التي استوعبت كل التناقضات والمفارقات التي أقام

الفكر العربي فلسفته النهضوية لتجاوز كل مظاهر الانقراض والفناء التي عرفها العالم الإسلامي على المستوى الاقتصادي والثقافي، وبذلك فثقافة العولمة قد كرست لفكرة الاندماج العالمي في الثقافات الأخرى، في حين انصرفت الثقافة الإسلامية إلى بلورة هذا النموذج مع ضرورة احتواء تلك القيم والأفكار التي تتعارض مع مبادئ المشروع التنموي الإسلامي، ومن هذا المنظور فإن كل عجز أو إخفاق في استيعاب هذا النموذج وتجاوز الأزمات واستغراق المرجعيات الإسلامية الراهنة يعد إعلانا صريحا عن موت حركة التجديد عند المسلمين ومن ثم حتمية إقتداء المغلوب بالغالب .

إن الصورة المستقبلية للوعي الإسلامي يقتضي توجيه المسلم المعاصر نحو الحضارة وتجاوز كل نقص ابتلته به الحضارة الغربية لاسيما سيادة مبدأ القابلية والتبعية عند المسلم للغرب ، ومن ثم فإن تبني فرض قيم الفكر الإسلامي قد يحدد عناصر الحضور عند الوعي الإسلامي لخلق حاضر جديد ينطلق من التخطيط التنموي اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا لتحديد ميلاد الإنسان الحقيقي الذي يملك ثقافة التجديد والخلق أين يكون موقع هذا الإنسان ضمن ما تفرضه ثقافة العولمة ليصبح مفهوم النهضة والحضارة في سياقها الإسلامي أكثر انفتاحا على موازين القوى في العالم ومن هذا المنظور فأزمة الغياب تمثل مشكلة قائمة بذاتها قد يكون لثقافة الاستعمار دخلا فيها، إلا أن ضرورة التحرر من هذه الثقافة يعد مطلبا حضاريا لفهم قيم الحداثة واختزال تجلياتها في معادلة النمو والتطور التي تؤسس لمستقبل الوعي الإسلامي ضمن هذه التحديات الاقتصادية والصراعات الإيديولوجية المعاصرة.

إن اهتمامات الفكر العربي المعاصر بهذه القضايا المعاصرة تعد انعكاسا مباشرا لتطور الفكر العربي من مرحلة اجترار واستهلاك تراث القدامى إلى التجديد ونهضة العقل العربي بعيدا عن تغيير الآخر الذي يمثل مرجعا وباعثا على نضج الخطاب الفلسفي الذي أعلن عن فعاليته في إضفاء الطابع العالمي على العقلانية العربية المعاصرة التي استوفت عناصر مسارها التاريخي انطلاقا من التأسيس الفلسفي لفكر عربي يحمل في طبيعته الحركية ثقافة التعايش الديني والفكري مع تلك المشكلات والتحديات التي يعرفها واقع هذا الفكر مع بداية نهضة وقيام الحضارة العربية المعاصرة.

الهوامش:

1- شافية صديق ، إشكالية النهوض في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قرطبة، ط1، 2006، ص98.

2- الطيب تزني ، التراث وتحديات العصر في الوطن العربي ، درا الفكر، الجزائر ، ص 28.

3- عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية ، ج2، ط1، 1984، بيوت ، ص 179.

4- محمد عابد الجابري ، المناهج التجريبية وتطور الفكر العلمي ، بيروت ، 1982، ص 48.

5- زكي نجيب محمود ، قصة العقل ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط1، 1983، ص ص 72-73.

6- مالك بن نبي، شروط النهضة ، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984، ص10.

7- عبد الطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، ط1، 2006، ص170.